صدر الكتاب[1]

البيان

لا وُجود للمقالة البيانيَّةِ إلا في المعاني الَّتي اشتملتْ عليها ، يُقيمها الكاتبُ على حُدودٍ ، ويُديرها على طريقةٍ ، مُصيباً بألفاظه مَواقع الشُّعور ، مُثيراً بها مَكامنَ الخيال ، آخِذاً بوزْنٍ تاركاً بوزْنٍ ، لتأخذ النَّفسُ كما تشاء ، وتَترك .

ونقلُ حقائق الدُّنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة ، أو الشِّعر ؛ هو انتزاعُها من الحياة في أُسلوبٍ ، وإظهارُها للحياة في أسلوبٍ آخرَ يكون أوفى ، وأدقَّ ، وأجملَ ؛ لوضْعه كلَّ شيءٍ في خاصِّ معناه ، وكشْفِه حقائقَ الدُّنيا كشْفَةً تحت ظاهرها الملتَبِس ، وتلك هي الصِّناعةُ الفنِّيَّةُ الكاملة ، تستدرِك النَّقصَ ، فتُتِمُّه ، وتتناول السِّرَّ ، فتُعْلِنُه ، وتلمِس المقيَّدَ ، فتُطلِقه ، وتأخذ المطلقَ ، فتحُدُّه ، وتكشف الجمال ، فتُظهره ، وترفع الحياة درجةً في المعنى ، وتجعل الكلامَ كأنَّه وجَدَ لنفسه عقلاً يعيش به .

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ؛ ولـكنَّه أداةٌ في يد القوَّة المصوِّرة لهـذا الوجود ، تصوِّرُ به شيئاً من أعمالها فنّاً من التَّصوير .

الحكمةُ الغامضةُ تريدهُ على التَّفسير ، تفسير الحقيقة ؛ والخطأ الظَّاهر يريده على التَّبيين ، تبيينِ الصَّواب ، والفوضى المائجةُ تسأله الإقرار : إقرارَ التَّناسب ؛ وما وراء الحياة يتَّخذ من فكره صلةً بالحياة ؛ والدُّنيا كلُّها تنتقل فيه مَرْحَلةً نفسيَّةً ؛ لتعلوَ به ، أو تنزل . ومن ذلك لا يُخلق المُلهَمُ أبداً إلا وفيه أعصابُه الكهربائيَّة ، وله في قلبه الرَّقيقِ مواضعُ مُهيَّأةٌ للاحتراق ، وتنفذ إليها الأشعَّةُ الرُّوحانيَّةُ ، وتتساقط منها بالمعاني .

وإذا اُختير الكاتبُ لرسالةٍ ما ؛ شعر بقوَّةٍ تفرض نفسها عليه ؛ منها سِنادُ رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمالُ ما يأتي به ، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجودٌ ، وله بها وجودٌ آخر ، ومن ثمَّ يصبح عالمَاً بعناصره

---

(١) مقدمة الطبعة الأولى للمؤلف . (س) .

للخير، أو الشَّرِّ كيما يوَجِّه ، ويُلقىٰ فيه مِثلُ السِّرِّ الذي يُلقى في الشَّجرة لإخراج ثمرها بعملٍ طبيعيٍّ يُرَى سهلاً كلَّ السَّهل حين يتمُّ ، ولـكنَّه صعبٌ أيُّ صعبٍ حين يَبدأ .

هـذه القوَّة هي الَّتي تجعل اللفظَة المفرَدةَ في ذهنه معنىً تامّاً ، وتحوِّل الجملة الصَّغيرة إلى قصَّةٍ ، وتنتهي باللَّمحة السَّريعة إلى كشفٍ عن حقيقةٍ ، وهي تخرجه من حكم أشياءَ ؛ ليحكم عليها ، وتُدْخله في حكم أشياءَ غيرِها ؛ لتحكم عليه ، وهي هي الَّتي تميِّز طريقته، وأسلوبه؛ وكما خُلق الكونُ من الإشعاع تضع الإشعاعَ في بيانه[1] .

ولا بدَّ من البيان في الطَّبائع الملهَمة ؛ ليتَّسِعَ به التَّصرُّفُ ؛ إذ الحقائق أسمى ، وأدقّ من أن تُعرفَ بيقين الحاسَّة ، أو تنحصرَ في إدراكها ؛ فلو حُدَّت الحقيقةُ ؛ لما بقيت حقيقةٌ ، ولو تَلَبَّسَ الملائكةُ بهـذا اللَّحمِ ، والدَّمِ ؛ لبطل أن يكونوا ملائكةً ؛ ومن ثمَّ فكثرةُ الصُّوَر البيانيَّة الجميلة للحقيقة الجميلة هي كلُّ ما يمكن ، أو يتسنَّى من طريقةِ تعريفِها للإنسانيَّة .

وأيُّ بيانٍ في خُضرة الرَّبيع عند الحيوان من آكِلِ العُشْبِ إلا بيان الصُّورة الواحدة في معِدتِه ؟ غير أنَّ صُوَرَ الرَّبيع في البيان الإنسانيِّ ـ على اختلاف الأرض ، والأمم ـ تكاد تكون بعدد أزهاره ، ويكاد النَّدى يُنضِّرُها حُسناً ، كما ينضِّره .

ولهـذا ستبقى كلُّ حقيقةٍ من الحقائق الكبرى ، كالإيمان ، والجمال ، والحبِّ ، والخير ، والحقِّ ، ستبقى محتاجةً في كلِّ عصرٍ إلى كتابةٍ جديدةٍ من أذهانٍ جديدة .

* * *

وفي الكتَّاب الفضلاءِ باحثون مفكِّرون ، تأتي ألفاظُهم ، ومعانيهم فنّاً عقليّاً غايتُه صحَّةُ الأداء ، وسلامة النَّسَق ، فيكونُ البيانُ في كلامهم على نَدْرَةٍ كوَخْزِ الخُضرةِ في الشَّجرة اليابسة هنا ، وهنا ، ولكنَّ الفنَّ البيانيَّ يرتفع على ذلك بأنَّ غايته قوَّة الأداء مع الصحَّة ، وسموُّ التَّعبير مع الدِّقَّة ، وإبداعُ الصُّورة زائداً جمالَ الصُّورة ؛ أولئك في الكتابة كالطَّير له جناحٌ يجري به ، ويَدِفُّ ، ولا يطير ، وهؤلاء

(١) ثبت أنَّ الإشعاع هو المادة التي صُنع منها الكون . (ع) .

كالطَّير الآخر له جناحٌ يطير به ، ويجري ، ولو كتَبَ الفريقان في معنىً واحدٍ ، لرأيت المنطقَ في أحد الأسلوبين ، وكأنَّه يقول : أنا هنا في معانٍ ، وألفاظ ، وترى الإلهامَ في الأسلوب يُطالعُك : أنَّه هنا في جلالٍ ، وجمالٍ ، وفي صُورٍ ، وألوان .

ودَوْرَةُ العبارة الفنِّيَّة في نفس الكاتب البيانيِّ دورةُ خَلْقٍ ، وتركيبٍ ، تخرج بها الألفاظ أكبرَ ممَّا هي ، كأنَّها شَبَّت في نفسه شباباً ، وأقوى ممَّا هي ، كأنَّما كسبَت من روحه قوَّةً ؛ وأدلَّ ممَّا هي ، كأنَّما زاد فيها بصناعته زيادةً . فالكاتب العلميُّ تمرُّ اللُّغةُ منه في ذاكرةٍ ، وتخرج كما دخلت ، عليها طابعُ واضعيها ، ولكنَّها من الكاتب البياني تمرُّ في مصنعٍ ، وتخرج عليها طابعهُ هو ، أولئك أزاحوا اللُّغة عن مرتبةٍ ساميةٍ ، وهؤلاء عَلَوْا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأوَّلين بالفكر ، ولا شيء إلا الفكرُ ، والنَّظرُ ، والحكم ، غير أنَّك مع ذي الحاسة البيانيَّة لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوَّة الفكر ، والخيال ، والإحساس ، والعاطفة ، والرَّأي .

وللكتابة التَّامَّةِ المفيدة مثلُ الوجهين في خلْق النَّاس : ففي كلٍّ الوجوه تركيبٌ تامٌّ ، تقوم به منفعةُ الحياة ، ولكنَّ الوجه المنفردَ يجمع إلى تمام الخَلْق جمال الخَلْق ، ويزيد على منفعة الحياة لذَّة الحياة ، وهو لذلك ، وبذلك يُرى ، ويُؤثر ، ويُعشق .

وربما عابوا السُّموَّ الأدبيَّ بأنَّه قليلٌ ، ولكنَّ الخير كذلك ، وبأنَّه مخالف ، ولكنَّ الحق كذلك ؛ وبأنَّه مُحيِّر ، ولكنَّ الحسن كذلك ؛ وبأنَّه كثير التَّكاليف ، ولكن الحرِّيَّة كذلك .

إن لم يكن البحرُ ؛ فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النَّجمُ ؛ فلا تنتظر الشُّعاع ، وإن لم تكن شجرةُ الورد ؛ فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتب البيانيُّ ، فلا تنتظر الأدب .

مصطفى صادق الرَّافعي